مطبوع

وحدة "المرابطون والموحدون والمرينيون"

الأستاذ الدكتور محمد حقي

مسلك التاريخ والحضارة والتراث

شعبة التاريخ

1-التطور السياسي للمرابطين

مقدمة

1-الأساس البشري والجغرافي للمرابطين

ينتمي المرابطون إلى الفرع الثالث من البربر الأمازيغ وهم صنهاجة، لكن النسابة يميزون داخلها بين فرعين: صنهاجة (الشمال) التي تقيم في المناطق الشمالية بجبال فازاز والريف والقبائل، وصنهاجة الصحراء؛ وهذه هي التي تهمنا، التي تقيم في الجنوب المغربي والصحراء الكبرى. ويوضح ابن خلدون أن هؤلاء من الجيل الثاني من صنهاجة.

يسمون أيضا بالملثمين لأنهم يتخذون اللثام زيا لهم. وقد اختلف في سبب اتخاذه، فقيل إن سبب ذلك عائد إلى محاولة إخفاء أفواههم لأنها مصدر العار والقبح (يلاحظ هذا الأمر حتى الآن عند المغاربة)، أو لكثرة العواصف في الصحراء واشتداد الحر بها فاتخذ وقاية منها؛ وهذا الأرجح، وقيل إن مخيماتهم تعرضت لهجوم في غياب الرجال فوضعت النساء ألثمة وقاتلن العدو وهزمنه وتجنبن السبي والعار، فصارت صنهاجة منذ ذلك الوقت تتبرك به وتلتزم بحمله. وقد نسجت قصص كثيرة حول تشبثهم به حتى إنهم يقدمون تغطية محل اللثام (الوجه) على ستر العورة. ويقتصر اتخاذه على الرجال دون النساء.

وتتكون صنهاجة الصحراء من قبائل وعشائر كثيرة بلغ عددها عند البعض سبعين قبيلة، وأهمها: لمتونة وجدالة ولمطة ومسوفة وزغاوة وبنو وارث وبني ينتسر ...

تحتفظ المصادر بمجموعة من النصوص حول تحديد مواطنهم تختلف في بعض التفاصيل، لكنها تتكامل في الأخير لتحدد بشكل تقريبي. فصاحب "الحلل الموشية" (الحلل 17) يحددها كما يلي:

"ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام"

ويحدد البكري أكثر فيقول:

"ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، ويصيفون في موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين وهم إلى بلاد السودان أقرب، بينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل" (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" ص. 164)

ومن خلال النصين يتضح أن مواطن صنهاجة تقع في القسم الجنوبي الغربي من الصحراء الكبرى، وهو ما يوافق الأراضي الموريتانية.

ويوسع ابن أبي زرع المجال أكثر فيقول:

"وهذه القبائل كلها صحراوية، حوز بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا ومسيرة أربعة أشهر عرضا، من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية، وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان" (الأنيس المطرب، ص.120)

وبهذا تتجاوز موطنهم الجزء الغربي من الصحراء الكبرى لتمتد من المحيط الأطلنتي إلى جنوب إفريقية (تونس الحالية).

ويزيد ابن خلدون المجال اتساعا فيصل ببلادهم إلى الجنوب الليبي:

"الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب (...) فنزلوا من ريف الحبشة جوارا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا (...) كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة" (ابن خلدون ج6 ص.241)

وبهذا التحديد تصير مواطن صنهاجة ممتدة على كل الأجزاء الجنوبية من الصحراء الكبرى من المحيط إلى الحدود المصرية. لكن القبائل التي تهمنا تقيم في الأجزاء الغربية وهو ما يوافق الأراضي الموريتانية الحالية، إذ تقيم لمتونة وسط البلاد بينما تقيم جدالة إلى الجنوب منها وصولا إلى نهر السنغال.

وبالرغم من قلة النصوص حول نمط عيشهم فإن ما يتوفر يساعد على رسم صورة تقريبية، فالبكري يكتب عنهم "وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق" (البكري ص.164) وينقل ابن أبي زرع هذه المعلومات عنه مع بعض التغيير (الأنيس ص.120)

كما يضيف صاحب "الحلل الموشية" معلومات أخرى في هذه الجملة القصيرة "وهم ظواعن في الصحراء، رحالة لا يطمئن بهم منزل، وليس لهم مدينة يأوون إليها" (الحلل 17)

وكما يفهم من النصين فحياة صنهاجة تقوم على الترحال والتنقل المستمر خلف قطعان الماشية من الجمال والأغنام والماعز وبعض الدواب خاصة الحمير. وينظمون رحلتين موسميتين في الصيف والشتاء، إما في اتجاه الشمال (المغرب الأقصى) أو في اتجاه الجنوب (حوض نهر السنغال)، كما يحصل حاليا في موريتانيا. وتقوم معيشتهم على اللحم المشوي أو المقدد والحليب وبعض المواد الأخرى من حبوب وتمور يحصلون عليها من عمليات تبادلهم مع المستقرين والتجار الذين يمرون ببلادهم. كما لا يستبعد أن يكون الغزو إلى القبائل السودانية بشكل موسمي أحد الموارد الاقتصادية لهذه القبائل.

ولا نملك معلومات دقيقة عن تاريخ دخول الإسلام إلى صنهاجة، فهناك من يجعل إسلامهم مبكرا جدا ويقول إن إسلام بعضهم يعود إلى عهد عقبة بن نافع، وربما وقع هؤلاء في خلط بسبب نسبة الفهري فخلطوا بين عقبة وحفيده عبد الرحمن الذي سنذكره بعد قليل. وأما ابن خلدون فيقول إن إسلامهم تم بعد فتح الأندلس (ج6 ص.241)؛ أي بعد عام 95هـ/714م، وهذا كلام معقول إذا ربطناه بكون الولاة الأمويين؛ وخاصة عبيد الله ابن الحبحاب، عملوا على غزو بلاد السودان انطلاقا من جنوب المغرب الأقصى. كما أن روايات تقول إن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري (حفيد عقبة ابن نافع) بعد سيطرته على حكم بلاد إفريقية عام 127هـ اخترق الصحراء ونشر الإسلام في أوساط صنهاجة الصحراء. وبذلك نرجح أن الإسلام وصل إلى صنهاجة في عهد الولاة دون أن نستبعد أن يكونوا قد تعرفوا عليه أثناء حروب الفتح.

ولقد أورد ابن أبي زرع معلومات تنظيمهم السياسي؛ ونقلها عنه ابن خلدون، ترجع ظهور تنظيم سياسي عندهم إلى القرن 2هـ/8م، وكان أول ملوكهم في الصحراء تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني الذي عاصر عبد الرحمن الداخل وتوفي عام 222هـ بعد حكم حوالي 80 سنة، وكان ملكه عظيما. وخلفه حفيده الأثير بن فطر بن يتلوتان حتى وفاته (ت287هـ بعد حكم 65سنة)، وقام مقامه ولده تميم إلى أن ثارت عليه صنهاجة عام 306هـ/918م، فافترقت كلمتهم لحوالي 120 سنة، إلى أن قام فيهم محمد بن تيفاوت المعروف بتارشا اللمتوني الحاج الفاضل الدين المجاهد فجمعهم لمدة ثلاث سنوات ثم استشهد في غزاة إلى بلاد السودان فخلفه صهره يحي بن إبراهيم الجدالي عام 129هـ. وعلى يده ستبدأ الدعوة المرابطية.

وخلاصة الكلام فقد تشكل الأساس البشري للمرابطين من صنهاجة الصحراء البدو ساكني الصحراء الكبرى في مجاورة بلاد السودان، رعاة النعم المتقشفين الأشداء.

2-الأساس الديني لدولة المرابطين: دعوة عبد الله بن ياسين

يمكن اعتبار الدولة المرابطية مشروعا للفقهاء المالكيين وجزءا من صراعهم لفرض المذهب المالكي الذي بدأوه منذ قيام دولة الفاطميين بإفريقية، ويظهر ذلك جليا في كل مراحل قيام حركتهم ودولتهم، ففي كل لحظة يحضر الهم المذهبي والحرص على استحضاره في كل التصرفات والقرارت.

يحيى بن إبراهيم الجدالي يبحث عن مرشد:

خرج يحي بن إبراهيم الكدالي زعيم صنهاجة الجديد قاصدا حج بيت الله عام 429هـ/ 1037م، وفي طريق عودته توقف بالقيروان وحضر بمسجدها دروس زعيم المالكية آنذاك أبي عمران الفاسي فأعجب به وتحدث إليه، فسأله الشيخ عن أهله وعن بلده وعن دينهم ومذهبهم فأجابه عن كل ذلك، ثم طلب من الشيخ أن يبعث معه أحد طلبته ليعلمهم أمور دينهم. فوعده الشيخ خيرا، ولما عرض الأمر على تلامذته لم يجد عندهم رغبة في الذهاب إلى الصحراء واستصعبوا العيش هناك، فاعتذر للزعيم الصنهاجي غير أنه حمله رسالة إلى أحد تلاميذه بالمغرب الأقصى رجاء أن يجد عنده حاجته.

قصد يحيى الكدالي المغرب الأقصى ميمما حيث نفيس أو ملكوس مقر إقامة وكاك بن زلو اللمطي تلميذ أبي عمران، وبعدما قرأ الرجل كتاب شيخه اختار له فقيها صنهاجيا جزوليا متحمسا اسمه عبد الله بن ياسين بعدما قبل السفر معه.

عبد الله بن ياسين في الصحراء يدعو:

لا نعرف عن الرجل إلا معلومات قليلة جدا. فهو من الناحية العرقية من جزولة إحدى قبائل صنهاجة الصحراء مما يقربه من أبناء عمومته. وربما؛ كان – حسب بعض الروايات – من أبناء الصحراء وأنه ولد في مكان قرب أودغست. ولو كان هذا الأمر صحيحا لكان قد سهل عليه مهمة التواصل مع الناس هناك وتحمل مشاق الحياة في الصحراء.

وتقول روايات إنه زار الأندلس طلبا للعلم وأقام بها سبع سنوات حصل خلالها علما كثيرا، وعاد إلى المغرب والتحق برباط شيخه وكاك بن زلو اللمطي وأقام معه.

وابن ياسين فقيه على المذهب المالكي تقي ورع نبيه متقشف يفضل البعد عن السلطان، ويستنتج من تصرفاته أنه داعية بارع وخطيب جيد.

فرح الناس بقدومه وبجلوه، وكان يحي أشدهم تعظيما له وفخرا به. فصار يعقد له مجلس الوعظ والتعليم ويدعو الناس إليه.

عمل الشيخ على تغيير مناكر إهمال الشعائر وتجاوز الحدود في الزواج والزكاة وتعليم شعائر الدين وتأليف قلوب صنهاجة لتوحيدها. واستطاع استقطاب الطلبة من كل الأنحاء. وكان يلجأ إلى التدرج في التعليم حيث بدأ بالوعظ البسيط ثم انتقل إلى تفسير القرآن ورواية الحديث وتعليم الفقه. وكان يعطي بنفسه المثال بالتقشف في معيشته والاقتصار على لحوم الصيد البري والبحري والإكثار من العبادة وشدة الصبر والتحمل. وكانت حياته هذه مدعاة لنسج قصص جعلت منه وليا حيا.

لكن بعض نزواته مثل الإكثار من الزواج والتطليق والمبالغة في العقاب وفرض الأحكام بصرامة ومس مصالح بعض الفئات في مجتمع صنهاجة خلقت مقاومة محلية تزعمها فقيه يسمى الجوهر بن سكم وزعيمان هما أيار وإينتكوا، فعزلوه وطردوه ونهبوا بيته. ويرجح أن هذا الأمر حصل بعد موت يحي الجدالي وفقدانه حمايته وتعيين يحي بن عمر اللمتوني مكانه بمباركته مما أفقد جدالة الزعامة وأغضبها.

اختلف حول التصرف الذي رد به عبد الله بن ياسين، فقول يذهب إلى أنه عاد إلى شيخه وكاك الذي كتب إلى أهل جدالة يوبخهم ويحذرهم من مخالفة الداعية لأن ذلك مخالفة للدين والجماعة فأرجعه فاعتذروا له وأعادوه إلى مكانه وموقعه السابق. وقول يرى أنه رحل رفقة يحي بن عمر اللمتوني إلى جزيرة في وسط أحد أنهار المنطقة إما السنغال أو النيجر أو أحد مصبات الأنهار الداخلية على هامش الصحراء، فبنى رباطا هناك وتفرغ للعبادة والتربية، وهذا هو الرأي الأرجح.

بداية الحركة المرابطية

بدأ الرباط بجماعة لا تتجاوز عشرة أشخاص (2لمتونة -7 جدالة – الشيخ)، فأخذهم الشيخ بتربية صارمة تقوم على التقشف في المعيشة (صيد) وكثرة العبادة والصلاة في الجماعة (5ضربات لكل تأخر عن ركعة – 20ض لكل صلاة) والتعلم وقلة الكلام ... فتسامع الناس بالرباط وتقاطروا عليه فلم يكن يقبلهم إلا بعد امتحان عسير. وبعد ذلك أرسل الدعاة إلى القبائل لدعوة رجالها للالتحاق بالرباط، فاجتمع له نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة. وعند ذلك قرر الخروج بهم للجهاد.

بدأ الجهاد في أوساط القبائل حيث أرسل كل أبناء قبيلة إلى أهلهم للدعوة، ولما رفضوا حاربهم. وبدأ بجدالة وأخضعها (436هـ) ثم أتبعها ببربر جوار لمتونة وتغلب عليهم بعد حرب شديدة أطلق بعدها اسم المرابطين على أصحابه. ثم دخلت لمتونة ومسوفة ولمطة دون حرب، فصارت الدعوة دعوة صنهاجة ومسألة قومية لها مما ضخم الدعم وزاد منه. وكون جيشا من ثلاثين ألف رجل. وقام بحركات جهادية في أوساط السودان، وكان يبعث من مال الغنائم إلى طلبة وقضاة المصامدة، فزادت شهرته في المغرب والصحراء وبلاد السودان مما دفع أهل سجلماسة ودرعة إلى طلب مساعدته على التخلص من جور زناتة فاستجاب لهم. وهنا خرجت الدعوة من طابعها المحلي لتأخذ طابعا جهويا فبدأت بذلك الدولة المرابطية.

لقد نجح عبد الله بن ياسين في تحويل دعوة صغيرة في رباط مجهول إلى نواة دولة ستوحد مجمل أراضي المغرب.

3-تكوين الإمبراطورية المرابطية

تطلب تكوين الإمبراطورية المرابطية حوالي نصف قرن من الزمان (447-496هـ)، وشارك في العملية أميران اثنان هما أبو بكر بن عمر اللمتوني ويوسف بن تاشفين. وكانت المواجهة بالأساس مع القبائل الزناتية بزعامة مغراوة التي تحكمت في مختلف مناطق المغرب عدا سوس. وقد مرت العملية بثلاثة مراحل:

ضم المغرب جنوب فاس

ضم المغرب الشمالي

ضم الأندلس

ضم المغرب جنوب فاس

لما ذاع صيت المرابطين بقيادة عبد الله بن ياسين كمجاهدين ومحتسبين وعادلين تطلعت إليهم قلوب المسلمين في المغرب لتخليصهم من الظلم والاستبداد، فبعث إليهم أهل درعة وسجلماسة "يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل مسعود بن وانودين المغراوي" (ابن أبي زرع، الأنيس، ص.127). وبعد استشارة أصحابه من زعماء المرابطين وافق عبد الله بن ياسين على الاستجابة لاستغاثتهم.

دخل المرابطون درعة في صفر 447هـ/ 1053م فسيطروا على إبل لمسعود بن وانودين المغراوي فأقبل إليهم في جيوشه ووقع الصدام، فانهزم ابن وانودين وقتل ودخل المرابطون سجلماسة وعينوا عليها عاملا. وهنا تقول بعض الروايات إن يحي بن عمر مات في بعض حروبه ببلاد السودان وخلفه أبو بكر بن عمر (الأنيس) لكن رواية أخرى تجعل وفاته قبل فتح سجلماسة بسنة وهذه؛ ربما، أرجح.

وفي السنة الموالية؛ ومن هناك، اتجهوا نحو سوس وسيطروا على أهم مراكزه خاصة جزولة وماسة وتارودانت حيث قضوا على فرقة الشيعة البجلية التي كانت تتحكم في المنطقة، ثم صعدوا شمالا فضموا شيشاوة ونفيس وجدميوة وبايعتهم رجراجة وحاحة.

وفي عام 449هـ حاصروا مدينة أغمات مركز الحوز الأول، ولما اشتد الحصار على حاكمها لقوط بن يوسف المغراوي أسلمها وفر نحو تادلة إلى بني يفرن حكامها لاجئا. وبعد تنظيم أحوال أغمات التي صارت المركز الرئيسي للدولة الجديدة، استأنف المرابطون زحفهم نحو تادلة فهزموا بني يفرن وقتلوا لقوط المغراوي، وتزوج أبو بكر ابن عمر أرملته زينب النفزاوية.

وبعد استراحة بأغمات انطلق المرابطون نحو تامسنا فاصطدموا ببرغواطة تحت قيادة أبي حفص عبد الله بن أبي عبيد البرغواطي في حروب شديدة أصيب فيها عبد الله بن ياسين بجروح تسببت في وفاته. وبعد دفنه بكريفلة، عاد المرابطون إلى الحرب فهزموا برغواطة وشتتوا رجالها وأبادوا الكثيرين وأخضعوا البلاد عام 451هـ.

وطرح في هذا الوقت مشكل خلافة ابن ياسين، فرواية تقول إن المرابطين بايعوا أبا بكر قائدا عليهم وصار صاحب السلطتين الدينية والسياسية، بينما يذكر القاضي عياض وابن خلدون أنهم عينوا سليمان بن حدو ليتولى الإرشاد محل ابن ياسين، وإذا كان صاحبا الرواية الأخيرة موثوقان مما يدفع لتصديقها فإن واقع الحال أثبت فيما بعد أن صاحب السلطة الأول لو يكن سوى أبا بكر وأن سليمان لم يذكر أبدا في المصادر في اتخاذ القرارات الحاسمة.

وفي عام 452هـ غزا المرابطون بلاد فازاز وبلاد مكناسة بعد استنجاد مهدي الكزنائي بهم ضد تميم بن معنصر المغراوي صاحب فاس.

وفي هذا الوقت وصلت أخبار من الصحراء بشأن اندلاع صراع بين جدالة ولمتونة، فاضطر أبو بكر إلى الرحيل إلى هناك لإصلاح الوضع، لكنه وقبل المغادرة سلم قيادة المرابطين لابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني وطلق زينب النفزاوية وأمره بالزواج يها. وهنا تنتهي المرحلة الأولى من التوسعات المرابطية. ووافقت قد عرفت هذه اللحظة تمردا للقبائل الزناتية التي سبق إخضاعها.

ضم المغرب الشمالي

وتهم هذه المرحلة التوسع في شمال المغرب وإتمام توحيده تحت السلطة المرابطية. فما إن انفرد ابن تاشفين بالسلطة حتى شمر على ساعد الجد وانطلق في حملات واسعة بمساعدة مجموعة من القواد الأكفاء.

ففي 455هـ، دخل فاس على تميم بن معنصر المغراوي بعد حصار شديد وحروب قوية، ثم رحل إلى غمارة تاركا عاملا لمتونيا على المدينة. واستغل تميم المغراوي الفرصة وعاد إليها وقتل العامل. وفي مواجهة مع المرابطين قتل تميم وخلفه القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الزناتي المكناسي ففك حصار المدينة وهزم المرابطين. فاضطر يوسف إلى ترك حصار قلعة مهدي بجبال فازاز لبعض رجاله وقاد جولة عسكرية ضمت بني مراسن (456هـ) وورغة (458هـ) وبلاد غمارة(460هـ) التي يظهر أنها تساند أهل فاس. وفي عام 462هـ حاصر فاس ودخلها عنوة وقتل كثيرا من زناتة، ووحد العدوتين داخل سور واحد.

وفي 455هـ بايع حاكم مكناس المهدي بن يوسف الجزنائي يوسف بن تاشفين وتركه عاملا عل المدينة، لكنه قتل عندما حاول دعم عامل فاس أمام تميم بن معنصر المغراوي عام 456هـ، فانتقل حكم مكناسة إلى عامل ليوسف بن تاشفين.

وفي 463هـ ضم المرابطون ملوية ووطاط.

وفي 465هت دخلوا الدمنة بأحواز طنجة.

وفي 467هـ أخضعوا غياثة وبني مكود وبني رهينة بأحواز تازة.

وفي 470هـ دخلوا طنجة وقتلوا سقوط البرغواطي حاكم سبتة.

وفي 472هـ غزوا تلمسان على يد القائد مزدلي.

وفي 473هـ فتحوا جرسيف ومليلية وجميع بلاد الريف ونكور التي خربها تماما.

وفي 474هـ فتحوا وجدة وتنس ووهران وأعمال شليف إلى الجزائر المدينة.

وفي عام 477هـ دخلت سبتة برا وبحرا على ضياء الدين يحي بن سقوط البرغواطي.

لقد صار المغرب تحت السلطة الكاملة ليوسف بن تاشفين الذي كان عليه أن يحل مشكل القيادة أثناء توسعاته، ذلك أن أبا بكر بن عمر عاد من الصحراء وطمع في استعادة السلطة، لكن تصرف يوسف بمشورة من زينب وأتباعه أقنعه بتجنب المواجهة فتنازل عن السلطة ليوسف منذ 467هـ وعاد إلى الصحراء محملا بالهدايا حيث سيقيم حتى وفاته عام 480هـ.

وأثناء التوسع كان يوسف ينظم مملكته ويعطيها سمات الملك، فقد اتخذ عاصمة جديدة (مراكش)، وعين العمال في كل المناطق التي ضمها من بين بني عمومته، وسك عملة باسمه

منذ 473هـ. واستطاع أن يفرض نفسه كقائد أول في المغرب، لذلك تطلعت إليه قلوب الأندلسيين المهددين في وجودهم من قبل قشتالة.

ضم الأندلس

منذ سقوط الخلافة الأموية بالأندلس انقسمت البلاد إلى مجموعة من الإمارات تحت زعامات بربرية وعربية وصقلبية أطلق عليها اسم إمارات الطوائف وأشهرها: إمارات إشبيلية وغرناطة وطليطلة وسرقسطة وقرطبة... لكن الأولى تبقى أقواها. ودخلت في صراعات فيما بينها مما أضعفها وأعطى الفرصة لمملكة قشتالة المسيحية لتفرض عليها الوصاية والحماية، إذ صارت تغير على أراضيها في كل وقت، وتفرض عليها أتاوات سنوية، وتعيرها المقاتلين لضرب بعضها البعض. ولما تولى ألفونسو السادس عرش قشتالة زاد جشعه ولم تعد الأتاوات تكفيه، بل أراد أخذ كل البلاد، فسيطر على طليطلة من يد بني ذي النون عام 478هـ موجها صفعة قوية لملوك الطوائف ليستفيقوا ويبحثوا عمن يحميهم منه. وأمام ذيوع صيت المرابطين ويوسف بن تاشفين خاصة توجهوا إليه بزعامة أمير إشبيلية المعتمد بن عياد يطلبون دعمه وحمايته. وبعد استشارة الزعماء المرابطين والفقهاء قبل مساعدتهم بعد شروط وترتيبات.

اجتاز يوسف البحر إلى الأندلس عام 479هـ وقاد ملوك الطوائف في حرب ضد ألفونسو السادس انتهت بمعركة الزلاقة الشهيرة التي انهزم فيها القشتالي وطار صيت المرابطين في كل العالم الإسلامي. وبعدها عاد إلى مراكش.

وفي 481هـ عاد الأندلسيون للاستنجاد من جديد من ضرر حصن ليبط الذي أقامه ألفوسو6 في شرق البلاد وسط أراضي المسلمين واستغله للإغارة عليهم، فعبر البحر وحاصر الحصن، لكنه اكتشف خلافات ملوك الطوائف وخياناتهم، ففك الحصار وعاد إلى المغرب وقد تغير عليهم.

وفي 483هـ عاد إلى الأندلس فأخذ غرناطة ومالقة من بني زيري (عبد الله وتميم) ونفاهما إلى أغمات. وعاد إلى المغرب بعد أن أوصى قائده سير بن أبي بكر بأخذ كل البلاد.

في عام 484هـ أخذ سير وقواده قرطبة والمرية وجيان وبياسة وأيذة والبلاط والمدور ودخل إشبيلية في 22 رجب 484هـ، ونفى المعتمد بن عباد إلى أغمات. ثم دخل مرتلة ورندة

وبطليوس ومرسية ودانية وشاطبة وشقورة. وتأخر أخذ بلنسية حتى عام 495هـ. أما سرقسطة فقد انقذتها هيبته من السقوط في يد قشتالة وبقيت مستقلة في يد التجيبيين.

لقد صارت الأندلس باستثناء سرقسطة مرابطية.

خاتمة

اكتمل بناء الإمبراطورية المرابطية وصارت تمتد من الجزائر شرقا إلى المحيط الأطلنتي غربا ومن حدود طليطلة شمالا إلى بلاد السودان جنوبا، وكان لابن تاشفين الفضل الكبير في تكوينها قائدا وزعيما.

وفي عام 500هـ أسلم يوسف الروح وترك حكم البلاد لابنه علي الذي استمر فيه حتى 537هـ ليخلفه ابنه تاشفين لمدة سنتين ثم حفيده إبراهيم حتى سقوط مراكش في يد الموحدين.

التطور السياسي للموحدين

1-الأساس الجغرافي والبشري للموحدين

انطلقت الدولة الموحدية من جبال الأطلس الكبير الأوسط والغربي وقامت على أكتاف المجموعة البربرية المصمودية المستقرة في تلك الجبال وبزعامة أحد أبنائها من قبيلة هرغة. فما هي ممبزات هذه الجبال؟ وما هي طبيعة الساكنة المصمودية المقيمة هناك وما هي بعض فروعها؟

جبال الأطلس الكبير: جبل درن

يقول ابن خلدون عنها:

"تبتدئ سطورها من ساحل البحر المحيط عند آسفي وما إليها، وتذهب في المشرق إلى غير نهاية. ويقال إنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة، وهي في الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضا متتالية على نسق من الصحراء إلى التل."

هكذا تصور أهل العصر الوسيط جبال الأطلس، ويهمنا نحن منها الأطلس الكبير وخاصة منه الجزآن الأوسط والغربي. وهذه جبال حديثة إذ يعود تكوينها إلى الزمن الجيولوجي الثالث بفعل الحركات الالتوائية التي عرفها. وتتميز بارتفاعها العالي حيث تتجاوز جنوب شرق مراكش 4000 م في قمة توبقال ومنها تتدرج الارتفاعات نحو الانخفاض في الاتجاهات الأربع. وتتمير بكثرة القمم الحادة والسفوح الشديدة الانحدار والأودية العميقة مما وفر لسكانها حصانة طبيعية متميزة ساعدتهم على الصمود ووفرت لهم الحماية في كل الأوقات.

وتتوفر هذه الجبال على موارد مائية مهمة ومراعي خصبة إذ "تفجرت فيها الأنهار، وجلل الأرض حمراء الشعراء، وتطابقت بينها ظلال الأدواح، وزكت فيها مواد الزرع والضرع، وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد، وطابت منابت الشجر". (ابن خلدون ج6 ص.298). ويضيف الإدريسي "في كل هذا الجبل كل طريفة من الثمار وغرائب من الأشجار

والماء يطرد منه وبوسطه وحوافيه يوجد النبات أبدا مخضرا" (المغرب وأرض السودان، ص.94).

وتوفرت للسكان وسائل الاستغلال فاجتهدوا وزرعوا وغرسوا كل غريبة من النبات والشجر "في هذا الجبل من الفواكه التين الكثير الكبير الطيب المتناهي في الطيب البالغ الحلاوة وفيه العنب المستطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوى (...) وفيه الجوز واللوز وأما السفرجل والرمان فيكون به منهما ما يباع الحمل منه بقيراط واحد وله من الإجاص والكمثرى والمشمش كل غريبة وكذلك الأترج والقصب الحلو حتى إن أهل هذا الجبل لا يبيعونه ولا يشترونه لكثرته وعندهم شجر الزيتون والخرنوب والمشتهى وسائر الفواكه. وبهذا الجبل شجر كبير يسمى بالبربرية أرقان" (المغرب وأرض السودان، ص.94-95). ويضاف إلى ذلك إنتاج الحبوب خاصة الشعير والذرة والبقول بمختلف أصنافها. ويمارس السكان أيضا تربية الماشية خاصة الأغنام والماعز والأبقار وبعض الدواب خاصة البغال التي تتحمل صعود السفوح الشديدة الانحدار.

وبهذا الانتاج المتنوع والوافر "استغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم" (ابن خلدون، ص298)

المصامدة

وسكان الجبل من المصامدة وهم الاتحادية البربرية الثالثة الكبيرة إلى جانب زناتة وصنهاجة. وتضم مصمودة مجموعة كبيرة من القبائل منها: هرغة وهنتاتة وتينمل وغدميوة وكنفيسة ووريكة ورجراجة وهزميرة ودكالة وحاحة وأمادين وواوزكيت وبنو ماكر وهيلانة وغمارة وبرغواطة وسكساوة ... (ابن خلدون، ص.299). ولا تقتصر مواطنهم على الجبال بل امتدت على السهول والهضاب الأطلنتية المغربية بين تامسنا وجبال الأطلس الكبير شرقا وجنوبا.

ومصمودة من المستقرين الذين "اتخذوا المعاقل والحصون وشيدوا المباني والقصور" (ابن خلدون، ص298) بحيث كان في "أعلاه [جبلهم] جمل من قلاع وحصون تشف على نيف وسبعين حصنا" (المغرب وأرض السودان، ص.94) وتعتبر القصور وحدة السكن في بلاد المصامدة خاصة الجبلية. وتسير وفق نظام الجماعة باعتماد أعراف أو تشريعات إسلامية

وتتدخل في كل مناحي الحياة كبيرها وصغيرها. وقد دخل المصامدة الإسلام مبكرا مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير وتمسكوا به وكان لهم رجال مشهورون بالعلم والتصوف قبل الموحدين. وللمصامدة اعتزاز ونخوة ببلادهم ساعدهم عليها امتناع بلادهم وحصانتها. وكانت لهم مع لمتونة حروب وملاحم حتى قيل إن أحد أسباب اختيار موقع مدينة مراكش كان هو التحكم في جبال درن وضبط أهله، ولم يجد ذلك كثيرا فلجأ المرابطون إلى بناء سلسلة من الحصون على المخارج الرئيسية لجبال الأطلس، كما اعتمدوا سياسة صارمة في التعامل معهم خوفا منهم. وكان هذا أحد الأشياء التي حركتهم مع ابن تومرت للثورة وتأسيس الدولة الموحدية.

2-المذهب الموحدي والحركة الموحدية

قامت الدولة الموحدية على أساس مذهبي قوي أساسه الدعوة التي أنشأها المهدي بن تومرت والمرتكزة على التوحيد كعنصر محوري. وقد نجح ابن تومرت بعد تحصيل علمي قوي في جمع القبائل المصمودية في تنظيمات اجتماعية وسياسية ساعدته في تربيتها وإعدادها لمشروعه السياسي المتمثل في خلق دولة على أنقاض دولة المرابطين.

من هو ابن تومرت؟

اسمه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بأسافو (المشعل) ويلقب بأبي عبد الله والمهدي والإمام المعصوم تبعا لمراحل حياته وتطور دعوته السياسية. وينتسب إلى قبيلة هرغة المصمودية وذهب البعض إلى أنه من سلالة النبي وهو أمر اختلف فيه المؤرخون كثيرا بين مرجح ورافض. وهو من أسرة تشتهر بالنسك والعبادة، وكان أبوه على ما يبدو من اسم أمغار الذي يحمله شيخا لقبيلته، ويلقب بتومرت. وله ثلاثة إخوة هم عيسى وعبد العزيز وأحمد الكفيف وأخت مقربة جدا منه تسمى زينب.

اختلف حول تاريخ ولادته حيث تركزت الروايات بين 469 و 491هـ وبناء على تاريخ وفاته وعمره آنذاك (524هـ 50 أو 55سنة) يمكن حصر ولادته ما بين 469 م و 474هـ، ورجح عبد المجيد النجار عام 473هـ. وقد ولد ببلد أرغن على السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الأوسط بالرغم من أن بعض الروايات تجعله في السوس.

قضى طفولته الأولى وبداية شبابه في بلده، ويبدو أنه استغلها لحفظ القرآن وتحصيل بعض المعلومات الشرعية واللغوية فأظهر نبوغا أعطاه لقب أسافو. وبعدها رحل إلى المشرق لطلب العلم إما عام 499 أو 500هـ. ولا نملك معلومات حول خط رحلته، لكن تحريات الباحثين قدمت مسارا على الشكل التالي:

إيجلي نوارغن مراكش فاس قرطبة المهدية الإسكندرية مكة الشام العراق.

وقد قضى في المشرق عشر سنوات لا نملك كثيرا من التفاصيل عنها، لكن ما ورد عن بغداد دون غيرها يجعلنا نعتقد أنه جعلها وجهته الرئيسية والمفضلة ومصدر علمه وطلبه. ولا يمنع ذلك من كونه قام برحلات قصيرة إلى بعض مدن العراق وفارس. ولا تعطينا مصادرنا إلا معلومات عامة حول شيوخه الذين احتفظ بأسماء بعضهم مثل: أبو حامد الغزالي والكيا الهراسي والمبارك بن عبد الجبار وأبو بكر الشاشي وأبو بكر الطرطوشي وأبو عبد الله محمد بن منصور الحضرمي.

وعاد إلى المغرب "بحرا متفجرا من العلم، وشهابا واريا من الدين" كما قال ابن خلدون، وصاحب فكر ومبدإ شرع في تبليغه منذ بدأ رحلة العودة التي انطلقت من مكة مرورا بالإسكندرية والمهدية وبجاية وتلمسان وفاس ومكناس وسلا ومراكش. لقد كان يعلم ويرشد ويعظ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر واصطدم مع سلطات هذه المدن وعامتها أكثر من مرة وتعرض للطرد وكاد أحيانا يقتل، لكنه كان يصر على مواصلة عمله، وكان في كل مرة يفلت وكأن الرعاية الإلهية كانت تعده للقيام بمهمته التي تجند لها. ولما خرج من مراكش هاربا من حاشية علي بن يوسف ووصل أغمات كان قد قرر مستقبل عمله.

مذهب ابن تومرت وتنظيم أتباعه

كان لابن تومرت تكوين علمي متين ارتكز على ثقافة يطبعها الجدل والتأصيل والتعاطي مع فروع علمية لم تكن رائجة بقوة في المغرب خاصة أصول الفقه والحديث وعلم الكلام والاختلافات المذهبية، وزادتها قوة قدرته العالية على التأصيل واستحضار نصوص القرآن

والسنة. وهذا التكوين والمنهج مكناه من التغلب على كل من ناظروه سواء في بجاية أو فاس أو مراكش وقرب إليه الأتباع وأكسبه تعاطف الزعماء وحماه من بطشهم.

ويقوم نهج ومذهب ابن تومرت على مجموعة من العناصر أهمها:

*الاعتماد على الكتاب والسنة لفهم الدين

*التركيز على توحيد الله وتنزيهه عن كل تشبيه له وتجسيم كما يفعل المرابطون الذين سماهم بالمجسمة. (أعز ما يطلب، ص.223)

لَاإِلَهَ إِلاَّ الـذي دلَّتْ عَلَيْه المَوْجـودَاتُ، وَشَهِدَتْ عَلَيْه المَخْلُوقَاتُ، بِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلاَ، وَجَبَ لَهُ الـوُجُودُ عَلَى الإِطْلاَقِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيـدٍ وَلاَ تَخْصِيـصٍ بِزَمَانٍ ،وَلا مَكَانٍ، ولا جِهَةٍ، وَلاَحَدٌّ وَلاجِنْسٍ، ولاصُورةٍ، ولا شَكْلٍ، ولا مقْدَارٍ، ولا هَيْئَةٍ، وَلاَحَالٍ. أَوَّلٌ لاَ يَتَـقَيَّـدُ بِالقَبْلِـيَّة، آخِرٌ لايَتَقَيَّدُ بِالبَعْدِيَّة، أَحَدٌ لا يَتَقَيَّدُ بِالأَيْنِـيَّة، صَمَدٌ لا يَتَقَيَّدُ بِالـكَيْفِيَّة، عَزِيـزٌ لاَ يَتَقَيَّدُ بِالمِثْلِيَّة، لاتَحُدُّهُ الأَذْهَانُ، وَلا تُصَوِّرُهُ الأَوْهَامُ، ولاَ تُلْحِقُهُ الأَفْكَارُ، ولاتُكَيِّفُهُ العُقُولُ، لا يَتَّصِفُ بِالتَّحيُّزِ والانْتِقَال، ولا يَتَّصِفُ بِالـتَّغَيُّرِ والـزَّوال، وَلا يَتَّصِفُ بِالجَهْلِ وَالاضْطِرار، ولايَتَّصِفُ بِالـعَجْزِ والافْتِقَار، لَهُ العَظَمَةُ والجَلاَلُ، وَلَهُ العِزَّةُ والكَمَالُ، ولَهُ العِلْمُ وَالاخْتِيَارُ، وَلَهُ المُلْكُ وَالاقْتِدَارُ، وَلَهُ الحَيـاةُ والـبَقَاءُ، وَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى، واحِدٌ فِي أَزَلِيَّتِه، لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، ولا مَوْجُودٌ سِواهُ، لا أَرْضٌ ولا سَمَاءٌ، ولا مـاءٌ ولا هَوَاءٌ، ولا خـلاءٌ، ولامَلاءٌ، ولانُورٌ ولا ظَلامٌ، ولاَ لَيْلٌ ولاَنَهَارٌ، ولا أَنِيـسٌ ولا حَسِيـسٌ، ولارزٌ ولا هَمِيـسٌ، إِلاَّ الـواحِدُ الـقَهَّارُ، انْفَرَدَ فِي الأَزَلِ بِالـوَحْدَانِيَّة والمُلْك وَ الأُلـوهِيَّة، لَيْسَ مَعَهُ مُدَبِّرٌ فِي الخَلْقِ، ولا شَرِيـكٌ فِي المُلْك، لَهُ الحُكْمُ والقَضَاءُ، وَلَهُ الحَمْدُ والثَّنَاءُ، لا دافِعَ لِمَا قَضَى، ولا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، يَفْعَلُ فِي مُلْكِه مَا يُرِيـدُ، وَيَحْكُمُ فِي خَلْقِه مَا يَشَاءُ، لاَ يَرْجُو ثَوابـاً ولا يَخَافُ عِقَابـاً، لَيْسَ فَوْقَهُ آمِرٌ قَاهِرٌ، ولا مَانِعٌ زَاجِرٌ، لَيْسَ عَلَيْه حَقٌّ، ولا عَلَيْه حُكْمٌ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وكُلُّ نَـقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

(1) هذا النص غير مدرج في (أ).

*اعتماد فكرة المهدوية إذ اعتبر نفسه منذ 518هـ المهدي المنتظر المعصوم الذي يأتي في آخر الزمان لينشر العدل ويزيل الظلم والجور. (عنان. عصر المرابطين، ص.209)

وليس ذلك فقط ، فإن طاعة المهدى ، والاستسلام إليه ، إن هى إلا طاعة الله ورسوله ذاتها ، « فإن سنة المهدى هى سنة الله ورسوله ، وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله ، وموافقته موافقة الله ورسوله ، وتعظيم حرماته تعظيم حرمات الله ورسوله . هو أعلمهم بالله ، وأقربهم إلى الله ، به قامت السموات والأرض ، وبه كشفت الظلمات ، وبه تدفع الأباطيل ، وبه تظهر المعارف ، وبموافقته تُنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات»(١) .

*الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المبدأ الذي تمسك به منذ أن بدأ رحلة العودة من المشرق.

ولما استقر وسط أهله في إيجلي نوارغن؛ وكان قد اتخذ قراره بمواجهة المرابطين وإسقاط حكمهم الظالم منذ حلوله بأغمات واقتناعه برفضهم التغيير والاصلاح، بدأ في جمع الأتباع وأرسل أصحابه الذين جمعهم وكونهم في طريق عودته إلى القبائل يبثون أفكاره ويدعونهم إلى اتباع مهدي آخر الزمان. واعتمد في تكوين الأتباع على منهج تربوي يسهل تبليغ أفكاره باستخدام اللغة البربرية (اللسان الغربي) في التدريس والتأليف واعتماد طرق سهلة للحفظ والالزام بالمواظبة والحضور للتعلم والحفظ (الحزب) والصلاة، وكل تهاون يواجه أولا بالتعزير والضرب بالسياط وعند الاصرار بالقتل. وحاول تكسير الروابط الدموية وتعويضها بروابط الدين والمذهب فتشدد في عقاب كل من يداهن على قريبه كما أسند عقوبة المخالفين إلى قرابتهم. وحتى يضمن تماسك جماعته آخى بين أتباعه من غير المصامدة وأبناء قبائل مصمودية فألحقهم بها، وحتى يصفي جماعته من الضعاف والخونة والمترددين لجأ إلى الميز (استعراض الموحدين وفرزهم حسب الصدق للجماعة الجديدة – الونشريسي - مرتان) فقتل اعدادا كثيرة من المشككين والمعارضين، بل إنه قتل أهل تينمل لمعارضتهم لمشروعه.

وحتى يضبط أتباعه اعتمد على تنظيم دقيق قسم بموجبه أتباعه إلى طبقات أهمها: (معيار السبق والدور في الدعوة)

*أهل العشرة: أقرب أصحابه إليه وأهل مشورته الأساسيين منهم البشير وعبد المومن.

*أهل الخمسين وأهل السبعين

*طلبة العلم

*الحفاظ

*أهل الدار

*أهل قبيلة هرغة

* " " تينمل

* " " جدميوة

* " " جنفيسة

* " " هنتاتة

*الجند

*الغزاة والرماة

*عبيد المخزن

وستضاف إليها طبقات أخرى فيما بعد. ولكل طبقة مهمة ومرتبة محددة لا تتجاوزها في لا السفر ولا في الحضر، كما أنها مفتوحة لالتحاق عناصر جديدة. وبهذه الجماعة المتماسكة والمتحمسة بدأ حربه مع المرابطين.

مواجهة المرابطين وبداية الدولة الموحدية

بدأت الحملة على المرابطين كأعداء سياسيين؛ على ما يرجح، في مدينة أغمات عندما اقتنع أنهم غير مستعدين للإصلاح والتغيير إثر المقاومة التي أبدوها لأفكاره ونصائحه ومحاولتهم الفتك به. فأعلن هناك أنهم فاسدون وأوجب ضرورة تغييرهم بجماعة أحسن منهم، فكان كما يرجح لا يمر بقبيلة في طريقه إلى إيجلي نوارغن إلا ودعاها لذلك وانتدبها لليوم الموعود.

توجه نقد المهدي للمرابطين نحو إظهار عيوبهم بكل الوسائل والعبارات المتوفرة، فهم الجماعة التي ضيعت الإسلام حتى صار غريبا وفي عهدها ستظهر الجماعة التي ستعيده إلى سابق عهده بزعامة مهدي آخر الزمان الذي تنطبق كل صفاته عليه. وهم مجسمون جاهلون وناكرون للتوحيد وظالمون جائرون يستحلون أموال الناس بالباطل ويأكلون أموال اليتامى والأرامل ويحكمون بالجور والظلم ويحيدون عن الحق وهم متبرجون (لقب حشم) عراة وحفاة مكثرون من العمران والترف مما يؤذن بذهاب دولتهم. وهم كاذبون مفترون. وظل يردد هذه الانتقادات في كل المناسبات والمحافل حتى اقتنع بها هو قبل أتباعه.

لما ذاع صيت المهدي وكثر أتباعه أحس علي بن يوسف بخطره فبدأ يرسل إليه غزوات للقبض عليه (عامل سوس – أبو إبراهيم إسحاق – سير بن مزدلي وغيرهم) بلغ عددها ما بين 516 و518هـ تسع غزوات كانت كلها للموحدين غير اثنتين (هسكورة – أنسا). وكان المهدي يواجه في نفس الوقت المرابطين والقبائل المصمودية التي رفضت الانضمام إليه وحالفت المرابطين مثل هسكورة. ويبدو أن هذا الوضع انتهى مع مطلع عام 518هـ عندما استقر في تينمل (بلد هزميرة) كعاصمة له وسط القبائل المصمودية، وامتد نفوذه على جبال الأطلس الكبير والسوس.

انتقل بعد ذلك إلى الهجوم، فبدأ بتصفية صفوفه من خلال عملية التمييز التي قادها أبو محمد البشير وأودت بحياة آلاف من المشككين في عصمته وضعافي الولاء له. ووقعت مجموعة من المعارك يصعب ضبطها كلها. لكن المهدي فضل حتى هذا الوقت ترك مبادرة الهجوم للمرابطين والاستعانة بالجبل لهزمهم. وفي عام 520هـ أرسل حملة بقيادة البشير إلى ناحية أغمات وهزمت ثلاث جيوش مرابطية (أبو الطاهر تميم- يطي- أهل أغمات والنواحي) متتالية وطردتهم حتى أسوار مدينة مراكش، ثو انسحب البشير إلى تينمل. وقرر علي بن يوسف بعدها محاصرة الجبل بمجموعة من القلاع من إنشاء الفلاكي الأندلسي. وفي 524هـ، قرر المهدي تنظيم حملة ضخمة على مراكش أملا في إسقاط المرابطين. وشارك فيها البشير وعبد المومن، ونجح الموحدون في دفع المرابطين حتى أسوار مراكش الجنوبية عند باب الشريعة، وحاصروا المدينة لمدة أربعين يوما حصلت خلالها عدة معارك كان معظمها للموحدين. لكن المرابطين

توصلوا بالدعم من النواحي وخرج المحاصرون ووقعت معركة البحيرة التي فني فيها جيش الموحدين(40000رجلا)

ومن هؤلاء غير البشير ، اربعة من اصحاب المهدى العشرة ، هم سليمان بن مخلوف الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمارى الكدميوى ، وأبو يحيى بن يكيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن البشير لم يعثر له بأثر ، ولم توجد جثته ، فذاع بين المتعصبين من المصامدة أنه رفع إلى السماء[1]. ولكن الحقيقة

(عنان عصر المرابطين، ص.189، والخريطة، ص.187.)

ولم ينج منهم إلا 400 رجل منهم عبد المؤمن، وهو الحدث الذي علق عليه المهدي بأن لا أحد فقد ما دام عبد المؤمن حيا. وبعدها بقليل مات المهدي بن تومرت وبايع أصحابه عبد المؤمن سرا ليواصل عمل شيخه.

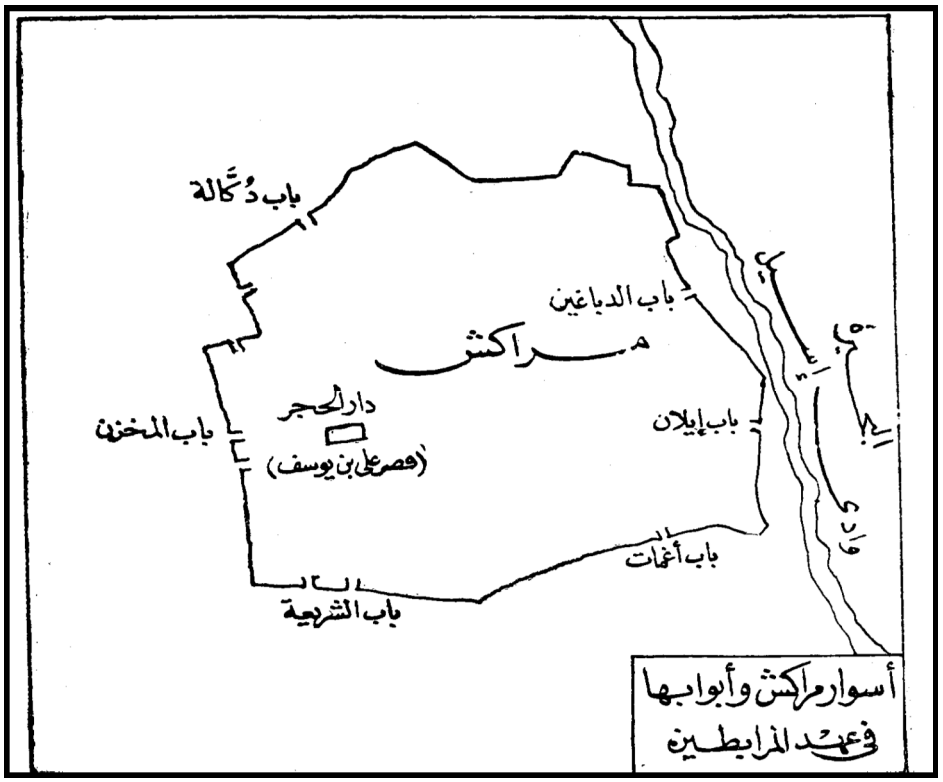

خاتمة

لقد نجح ابن تومرت في تكوين دولة صغيرة على الأطلس الكبير الأوسط والسوس وجرب مواجهة المرابطين، مما أعطى الثقة للأتباع للاستمرار تحت قيادة خليفته، وتكوين الإمبراطورية الموحدية.

3-تكوين الإمبراطورية الموحدية

تطلب تكوين الإمبراطورية الموحدية وقتا طويلا تجاوز النصف قرن شمل توسعات خليفة المهدي بن تومرت عبد المومن بن علي الكومي وابنه أبي يعقوب يوسف. وامتدت دولة الموحدين في اقصى توسعها على كل بلاد الغرب الإسلامي بمغاربها الثلاث والأندلس. فما هي مراحل التوسع؟ وما هي إنجازات كل مرحلة؟

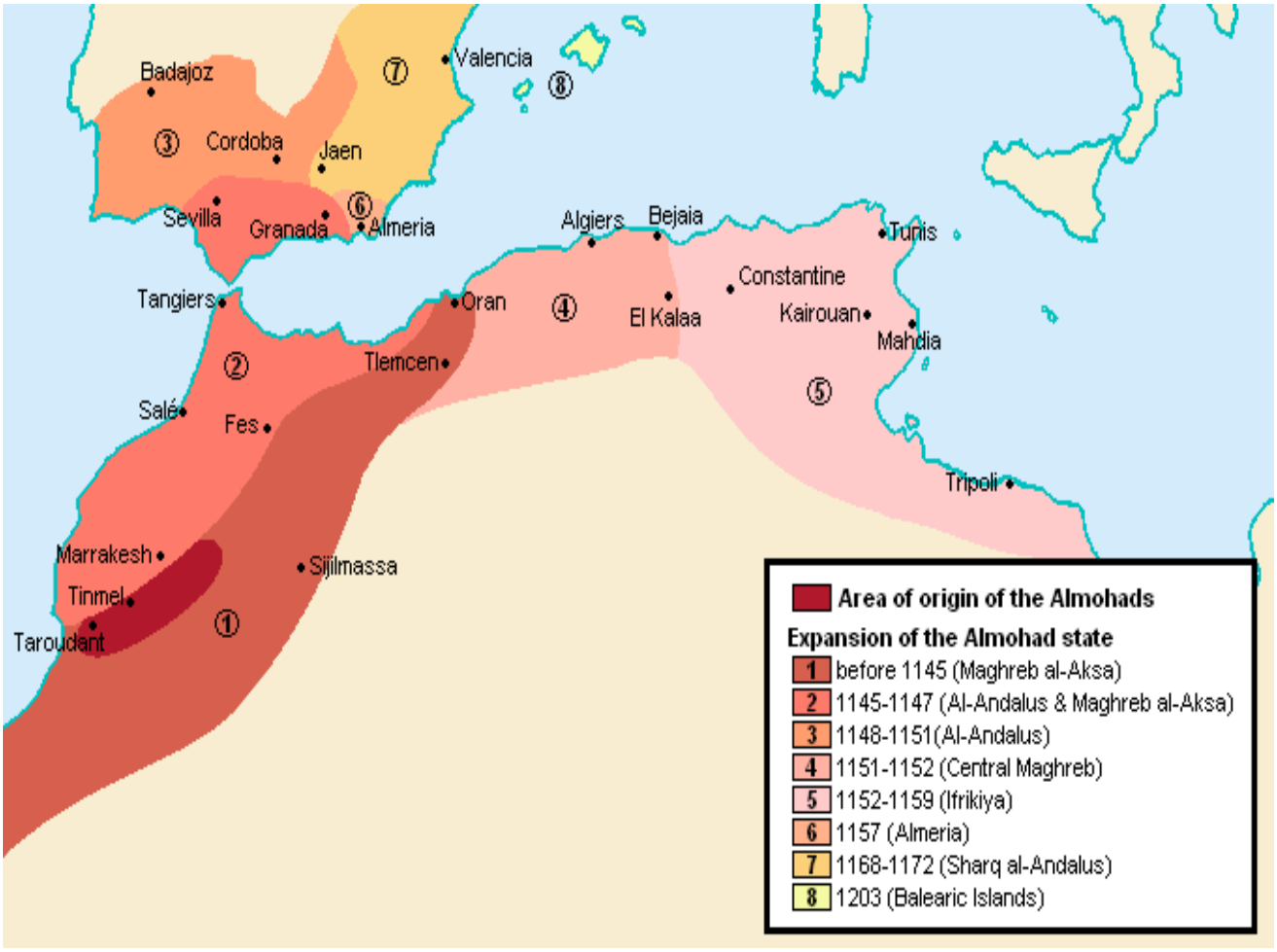

خريطة: مراحل تكوين الإمبراطورية الموحدية

توحيد المغرب

عقب وفاة المهدي بويع عبد المومن بن علي الكومي الزناتي أحد أصحابه العشرة والذي رافقه في رحلة عودته من المشرق من مدينة ملالة قرب بجاية في المغرب الأوسط. وقد صار من طلبته المقربين وأهل ثقته وأحد قواد حركته. واختلف حول ظروف بيعته، فرواية تقول إن المهدي أوصى ببيعته قبل موته ونفذ أصحابه الوصية، ورواية تقول إنه بايعه في حياته فأكدت بيعته بعد وفاته، ورواية ثالثة تقول إن أصحابه هم من بايعوه بعد وفاة الشيخ وتشاور بينهم. ويظهر أن رواية ترشيح الشيخ له لخلافته أقوى سواء بايعه قبل موته أو أوصى بذلك. وتؤكد الروايات أن جماعة الموحدين أخفت وفاة المهدي حتى 527هـ حرصا على وحدتهم وتجنبا للفرقة والصراع حول الزعامة، ولما تأكدوا من متانة وحدتهم أعلنوا وفاة المهدي ومعها خلافة عبد المومن.

بعد ترتيب أمورهم بدأ الموحدون في عمليات توسع وتركزت جهوده في البداية على مجال المصامدة في الأطلس الكبير وبلاد درعة وسوس.

ففي عام 526هـ غزا عبد المومن درعة وهزم المرابطين (تحت قيادة يدر بن ولجوط أو يحي بن مريم) في حصن تازاجورت وضم البلاد كلها. ودخل حصن تاسغيموت في بلاد هزرجة وحصن جلاوة وأرض غجدامة. واشتد الصراع مع المرابطين حول سوس حيث أخذ منهم أمسكروط وتارودانت ومعظم البلاد.

وفي عام 533هـ غزا عبد المومن حاحا وهزم تاشفين بن علي والقائد الريبرتر وضم البلاد وانضمت إليه جزولة.

استهدف الصراع في هذه المرحلة توحيد المصامدة كقاعدة خلفية للموحدين وحماية ظهر دولة الأطلس من الجنوب بضم سوس ودرعة.

وبعد هذا دخل في مرحلة ضم القبائل الأخرى والمجال الأبعد، فقرر تنظيم حملته الكبرى التي امتدت ما بين 534 و541هـ بدخول مراكش. وقد اختار سلوك الطريق الجبلية وتجنب مواجهة المرابطين في المناطق السهلية. ولما سمع علي بن يوسف بالحملة قرر مسايرة الموحدين على حدود الجبل ومراقبتهم ومنعهم من النزول إلى السهول. وكانت خطة عبد

المومن تقتضي كسب ولاء القبائل الجبلية وتجنب قدر الاستطاعة مواجهة أو حصار المرابطين.

بدأت الحملة من تينمل في اتجاه الشرق حيث مرت ببلاد مسفيوة وهسكورة (تاساوت ودمنات) وتادلة (ووزغت وتاكرارت داود بن عائشة وداي (وبلاد فازاز (قلعة مهدي وأزرو). ومن أزرو قاد حملة نحو الجنوب الشرقي وضم غريس وتدغة بينما تجنب سجلماسة، ثم عاد إلى فازاز ومنها إلى صفرو وتازة (536هـ) ومنها إلى الريف (غمارة وواد لباو وقلعة بادس وتمسمان ومليلة) ومنه إلى غرب المغرب الأوسط (ندرومة وتاجرا ووهران وتلمسان 539هـ) وهنا قتل الريبرتر وعلي بن يوسف وأفشل تدخل بجاية لدعم المرابطين. وبعد هذا النجاح قرر عبد المومن مواجهة المراكز الحضرية الكبرى فاتجه إلى فاس مرورا بوجدة وكرسيف ودخلها بعد حصار عام 540هـ ودخل مكناس وسلا وأزمور ودكالة ثم مراكش التي حاصرها قبل دخولها في شوال 541هـ (27). وبذلك قضى على المرابطين ووحد المغرب.

في عام 543هـ ضم سجلماسة.

وكان على الموحدين قبل ضمان حكم البلاد إخماد الثورات المضادة التي تفجرت عامي 542 و543هـ في معظم السهول الأطلنتية وسبتة وكادت تقضي على دولتهم.

ربع قرن من الزمان لضمان وحدة المغرب تقريبا.

ضم الأندلس

بدأت اتصالات الأندلسيين بالموحدين منذ وقت مبكر وحتى قبل تفردهم بحكم المغرب. وتقول الروايات إن وفودا أندلسية اتصلت بعبد المومن وهو في حصار تلمسان (مالقة 539هـ) أو عند دخوله فاس (بيعة قائد أسطول قادس علي بن ميمون 540هـ). واستغل عبد المومن الفرصة للدعاية لحكمه ومنع الدعم من الأندلس خاصة الأسطول فأرسل قوات موحدية إلى الأندلس حتى قبل دخول مراكش. وقد نجحت في ضم طريف والجزيرة الخضراء وبلاد غرب الأندلس (شريس-لبلة-ميرتله-شلب-باجة-بطليوس) وإشبيلية بعد حصار عام 541هـ، وقد ثارت ثم أعيد إخضاعها بعد سنتين.

في عام 543هـ سلم يحي بن غانية اللمتوني قرطبة للموحدين وضموا أيضا قرمونة وجيان وبياسة وأبذة.

وفي عام 551هـ سلم ميمون بن يدر المرابطي غرناطة للموحدين.

552هـ استرجوا المرية من أراغون بعد حكم عشر سنوات.

وفي عام 566هـ استولى أبو يعقوب على بلنسية والمناطق الشرقية من ورثة سعد بن مردنيش بعد حرب شرسة.

في عام 578هـ ضمت جزر البليار من بني غانية.

ضمت الأندلس بمجهود أكبر ووقت أطول من المغرب.

ضم المغربين الأوسط والأدنى

كانت بجاية قد تدخلت في صراع عبد المومن مع المرابطين وحاولت مساعدتهم عند حصار تلمسان بإرسال حملة بقيادة ميمون بن المنتصر الذي انهزم أمام عبد المومن. ويذكر البيدق أنه فر ولما وصل إلى متيجة أرسل إلى عبد المومن إعلان توحيده "وقال له إن أنت استفتحت المغرب فتجيء إلى المشرق تصيبه مفتوحا وأنا قائده" (أخبار59). وتذكر مصادر أخرى اسم قائد آخر يسمى كباب. ويظهر أن هذه الأحداث قد جعلت عبد المومن يقرر فتح المغرب الأوسط ولذلك نظم حملة سرية وسريعة عام 547هـ انتهت بدخول سهل لبجاية وكل بلاد بني حماد.

كانت معظم مدن إفريقية وعلى رأسها المهدية (543هـ) قد احتلت من قبل النورمانديين ملوك صقيلية، ففر أميرها الزيري الحسن بن على بن يحي الصنهاجي نحو الجزائر واستوطنها، ولما دخلها عبد المومن بايعه وصاهره ورافقه إلى مراكش. وفي عام 554هـ نظم عبد المومن حركته التي فتحت كل بلاد إفريقية وحررت المدن المحتلة وعلى رأسها المهدية في السنة الموالية.

خاتمة

خلال نصف قرن صار كل الغرب الإسلامي تحت حكم الموحدين من برقة شرقا إلى المحيط غربا ومن شمال قرطبة شمالا إلى الصحراء جنوبا. وكان هذا أوج توسع لدولة مغربية.

3-التطور السياسي للمرينيين

امتد عمر الدولة المرينية ما بين القرنين 7هـ/13م و9هـ/15م وغطت في بعض الأوقات كل شمال إفريقيا وجزء من الأندلس. وبالرغم من نقط التشابه التي تجمعها بالدول المغربية السابقة من ناحية الأساس البشري والجغرافي، فإنها انفردت ببعض العناصر التي ميزتها عنها خاصة فيما يتعلق بالأساس الإيديولوجي والمذهبي الذي قامت عليه والذي سيؤثر سلبا على مستقبلها. وقد مرت بعدة أطوار ومراحل تناوبت فيها مظاهر القوة والضعف، وتدخلت عناصر غريبة للتأثير في مسارها.

أصل المرينيين ونمط عيشهم

المرينيون فرع من زناتة من الجيل الثاني حسب التقسيم الخلدوني. وتختلف المصادر حول تحديد مواطنهم بحيث نجد اقتراحات وآراء مختلفة نجملها فيما يلي:

تمتد بلاد بني مرين من جنوب القيروان حتى صحراء بلاد السودان (بلاد الجريد - بلاد الزاب - إفريقية)

مواطنهم ما بين سجلماسة وفكيك في الجنوب وملوية في الشمال مع توغل حتى بلاد الزاب (ابن خلدون)

من بلاد الجريد حتى المغرب مرورا ببلاد الزاب وتاهرت وجهات تلمسان (ابن مرزوق)

مجال بين تلمسان وتاهرت (الحلل الموشية).

يلاحظ؛ وبالرغم من الاختلاف في التفاصيل، أن كل التحديدات تجعل مجال القبيل يمتد من جنوب إفريقية ببلاد الجريد حتى ملوية بالمغرب الأقصى مرورا بالزاب ونواحي تلمسان وفكيك وسجلماسة. وهذا مجال شاسع يصعب أن يقيم فيه قبيل بشكل دائم مما يدفع إلى التفكير في كونه مجال ترحاله الموسمي بحثا عن المراعي تبعا للفصول والسنين. فنظام المعيشة والاقتصاد القائم على تربية الإبل والماشية يقتضي رحلتين في السنة. رحلة إلى الجنوب خلال فصل الشتاء وتتجه نحو واحات سجلماسة وبلاد الزاب والجريد (حسب السنين وربما يقسم القبيل إلى مجموعات تتجه كل واحدة نحو منطقة واحدة) حيث تكون الحرارة معتدلة وتنعدم الثلوج ويتوفر بعض الكلإ بفضل نظام السقي وقصر الدورة النباتية للنباتات بحيث تنمو بمجرد

سقوط أولى الأمطار موفرة كلأ للماشية في فصل الشتاء القاسي. ورحلة إلى الشمال خاصة إلى ملوية خلال فصل الصيف حيث تعتدل الحرارة ويتوفر الماء والكلأ (هذا نظام متوسطي ما تزال بعض آثاره باقية حتى اليوم).

وبناء على هذا التصور تكون المواطن التي حددت للقبيل هي مجال تحركه طيلة السنة ولا يقتضي تملكا له بل فقط مجموعة من التحالفات والاتفاقيات مع القبائل التي تنتشر به وتستغله.

ويقوم نمط عيش هذه القبائل على الترحال وتربية الإبل والماشية كما يحدده هذا الكلام لابن خلدون:

"لا يعمرون إلا القفار، ولا يؤدون لسلطانهم بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان، ولا يرضون بذل ولا هوان، لهم همم عالية ونفوس إلى المعالي سامية، لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل والخيل، ودأبهم الحرب وخوضان الليل، وشيمتهم إكرام الضيف وضرب أعدائهم بالسيف" (ج7).

يحدد النص مكونات نمط معيشتهم في:

الترحال

تربية الإبل والخيل والصيد (والماشية أيضا)

جهل بالزراعة والتجارة

الإغارة على الجيران وقطع الطرق ونهب القوافل

شيم: إكرام الضيف والشجاعة

عدم الخضوع لسلطان: لا ولاء ولا جباية

مجال ونمط حياة يؤهلان صاحبهما للتعرف على أحوال المغرب والاحتكاك بكل قواه السياسية؛ وربما، فهم بعض الأمور السياسية، ويضمن له حرية التحرك والتصرف حسب الظروف. ويفتح شهيته لغزو مناطق الخصب (أزغار).

نشأة الدولة المرينية

تعرف المرحلة الأولى من عمر الدولة غموضا كبيرا ولا تتوفر حولها إلا معلومات نادرة جدا. ففي عهد المرابطين كان يقودهم المخضب بن عسكر، وكان يغير بهم على أراضي الدولة مما اضطرها إلى مهادنته ومصانعته بالهدايا. ولما جاء الموحدون ساندهم في قتال زناتة الموالية للمرابطين، لكن ولسبب مجهول انقلب عليهم فجأة وأغار على غنائم عبد المومن التي حصلها من تلمسان ووهران، إلا أن الموحدين هزموه وقتلوه سنة 540هـ. وبعدها انسحبت القبيلة بزعامة أبي بكر بن حمامة (ت561هـ) إلى الصحراء قبل أن يبايع خلفه وابنه محيو الموحدين ويشارك في جيوشهم. وقد كان حاضرا في معركة الأرك التي جرح فيها جروحا مات منها بالزاب. وخلفه ابنه عبد الحق وشارك في هزيمة العقاب. وبعد هذه المعركة تغيرت مشاريع المرينيين السياسية دون معرفة سبب ذلك بدقة، مما يدعو إلى وضع مجموعة من الافتراضات ومنها:

الرغبة الدفينة عند الرحل في السيطرة على الأراضي السهلية الخصبة لذلك استقروا في الريف الجنوبي شمال تازة منذ سنة 610هـ

اضطراب أحوال البلاد بفعل الجفاف الذي عرفته هذه الفترة، فوقع صراع حول المراعي مما دفعهم إلى السيطرة على هذه المناطق.

ضعف القبائل المغربية نتيجة الجفاف وهزيمة العقاب وكذلك عجز الموحدين عن ردع الرحل والحفاظ على النظام العرفي القائم بين الرحل والمستقرين، مما فسح المجال للرحل للسيطرة النهائية على المراعي والاستقرار بها.

انفلات زمام القبائل العربية ومنعها لبني مرين من التنقل نحو الزاب والجريد، مما أجبرهم على الاستقرار بالريف وملوية العليا.

تمرد مبكر على الموحدين وفرارهم من سيطرتهم طيلة ثلثي قرن

كل هذه العوائل قد تفسر كليا أو جزئيا هذا التحول.

بدأ توسعهم ببلاد الريف (610-613هـ)، وهزموا قوات المستنصر بوادي نكور، وأسروا والي فاس أبا إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن قبل إطلاق سراحه، ثو احتلوا تازة. وفي عام 616هـ، أعلن أبو سعيد عثمان بن عبد الحق خلع طاعة الموحدين وضم تسول ومكناسة وبطوية

وبطلاسة وكزناية وغياثة وبني مكود...وفي سنة 620هـ، غزا بلاد فازاز، وبذلك صارت أراضيه تمتد ما بين ملوية وسلا. وفي عام 638هـ، واجه المرينيون الموحدين قرب مكناس وهزموهم تحت قيادة محمد بن عبد الحق (تولى عام 637هـ)، لكن السعيد رد عليهم وهزمهم قرب فاس عام 641 أو 642هـ وقتل زعيمهم، فانسحبوا نحم تازة وبايعوا أبا بكر بن عبد الحق.

المرحلة الثانية (مرحلة المدن) بدأت بعد الحصول على الدعم الحفصي فأخذوا مكناس عام 643هـ قبل أن يفقدوها بعد سنتين ويضطروا إلى بيعة السعيد ومساندته ضد بني عبد الواد. إلا أن هزيمة السعيد ومقتله على يد يغمراسن عام 646هـ، دفعت أبا يحي المريني إلى قطع الطريق على فلول الجيش الموحدي ونهبها قرب كرسيف وضم الأغزاز والمرتزقة المسيحيين إلى جيشه. وبعدها فتح مكناس وملوية الوسطى وفاس، ولما ثارت عليه في السنة الموالية أخضعها بقوة وعاقب الزعماء بالغرم ومصادرة الأملاك والقتل (648هـ). وفي سنة 648هـ هزم المرتضى قرب مكناس واحتل فازاز وسلا والرباط في السنة الموالية مؤقتا. وفي عام 653هـ، هزم المرتضى ثانية قرب فاس وعقد معه صلحا وهدنة. وفي هذا العام أو في 655هـ ضموا درعة وسجلماسة قبل موت أبي يحي عام 656هـ والذي أعقبته صراعات داخلية بين المرينيين.

بعد تصفية المشاكل الداخلية وانفراد يعقوب بن عبد الحق بالسلطة عام 658هـ، دخل المرينيون مرحلة السيطرة النهائية على المغرب وإسقاط الموحدين. وقد بدأوا باحتلال سلا وتامسنا وأنفا، وعقد صلح مع المرتضى يقسم المغرب بموجبه بين الطرفين يفصل بينهما نهر أم الربيع. وحاولوا دخول مراكش نهائيا وحاصروها أكثر من مرة (660 و 663هـ)، ثم استخدموا أبا دبوس المتمرد الموحدي لضرب الموحدين، وبعد صراعات وخلافات تمكن يعقوب من دخول مراكش عام 668هـ، وفي السنة الموالية ضم السوس ودرعة. وفي عام 672هـ، دخل طنجة وضم سبتة بصلح مع العزفيين وأخيرا سجلماسة عام 673هـ.

وبذلك صار المرينيون حكاما شرعيين للمغرب وبدأ عملهم في التشييد على جميع الأصعدة.

الدولة في طور القوة

حاول المرينيون أن يجدوا أسسا تدعم سلطتهم وتقنع الرعية بشرعية حكمهم فبحثوا عنها في:

البحث عن أصل عربي من خلال ربط زناتة بقيس عيلان ومن ثم إيجاد قرابة مع النبي.
الانتماء للبيت النبوي وقد جاء متأخرا في عهد أبي الحسن، لكن الأندلسي الذي حاول الدفاع عنه لم يجد تشجيعا من السلطان.
اعتبار أنفسهم ورثة للمرابطين وتشبههم بهم في كل شيء، بل حتى تقليد الموحدين في كثير من الأمور.
تعريب الإدارة والجيش (رياح والخلط)
فرض اللغة العربية كلغة رسمية ووحيدة
تطوير وتشجيع الحياة الدينية من خلال:
* تبني المذهب المالكي وإعادة إحيائه ونشره (التعليم - بناء المدارس - تشريع مالكي موحد)
* تنظيم ركب الحج الرسمي
* الاحتفال بالمولد النبوي
* احتضان التصوف ببناء زوايا موالية للدولة في عهد يعقوب المنصور وأبي عنان.
* بيعة الحفصيين ورثة الخلافة الموحدية والتوسع تحت لوائهم منذ أربعينيات القرن السابع الهجري
* الاهتمام بالشرفاء وتوقيرهم وتخصيص العطاء لهم وتقديمهم في المجالس.
وقد انطلق هذا العهد بدخول يعقوب المريني مراكش وإسقاط الموحدين وعمل منذ البداية على توطيد أسس دولته وإعطائها الرموز الضرورية من خلال مجموعة من الإجراءات منها:
تلقب بلقب أمير المسلمين بدل أمير المؤمنين تشبها بالمرابطين في إطار تبعية رمزية للحفصيين.
تعيين ولي عهد سنة 669هـ (أبو مالك) أولا ولما مات عين يوسف بعد سنتين مكانه.
بناء عاصمة جديدة للدولة وهي المدينة البيضاء أو فاس الجديد عام 674هـ غرب مدينة فاس الإدريسية، وأقام بها دواوينه وقصوره ومساكن رجال دولته بعيدا عن فاس القديمة.
وفي عهده بدأت معالم سياسة المرينيين تتضح، بحيث ظلت لصيقة بالهموم التي حددها يوسف بن تاشفين وسار عليها الموحدون بعد ذلك: إنها مشكل توحيد المنطقة (الأندلس

والمغربين الأوسط والأدنى) والمشاكل الداخلية (ثورات وتمردات القبائل). وستستمر على طول عمر الدولة وستساهم في استنزافها وتدميرها.

على الجبهة الأندلسية لم يكد يعقوب يسيطر على مراكش حتى تقاطرت عليه وفود الأندلس للاستنجاد والتذكير بواجب الجهاد في الأندلس، فاستجاب بسرعة بحثا عن الشرعية الجهادية وإقناع الرأي العام بقوته وقدرته على تحقيق إنجازات الموحدين قبله. وقاد أربع حملات (674 و676 و681 و684هـ) وحملة بحرية بقيادة ولي العهد عام 678هـ، وبالرغم من الانتصارات التي حققها ونجاحه في الحصول على جزء من الأراضي في الجزيرة الخضراء وطريفة ورندة وجبل طارق، فإن تقلب بني الأحمر وعدم التزام قشتالة بالصلح المعقود معها مرارا وتكرارا والتكاليف الباهظة للحملات قد حد من أهميتها ولم يحقق شيئا أكثر من إعادة إبراز دور المغرب المهم في غرب البحر الأبيض المتوسط.

ولم يواصل خليفته نفس السياسة بحيث اكتفى بحملة وحيدة عام 691هـ ثم تنازل عن الممتلكات المرينية لبني الأحمر وحاول التحالف مع قشتالة ضد تلمسان. واستغلت غرناطة والإسبان الوضع واحتلت طريفة وسبتة ودعمت ثوارا مطالبين بالعرش ضد المرينيين. واستمر التراجع المريني في الأندلس حتى 729هـ عندما قام أبو سعيد باسترجاع سبتة وإخضاع بني العزفي وبسط سيطرته على الجزيرة الخضراء وجبل طارق (733هـ) في أفق إعادة الوهج للجهاد في الأندلس. وفي عهد أبي الحسن نشط الجهاد وحقق بعض الانتصارات، لكن هزيمة طريفة عام 741هـ وضعت حدا للوجود المغربي الرسمي في الأندلس وأصبح المرينيون يقدمون فقط بعض الغزاة يقودهم شيخ الغزاة هناك ويخضعون للدولة النصرية.

على الجبهة المغربية، بايع المرينيون الحفصيين وبالرغم من تحالفهم معهم ضد بني عبد الواد، فقد ظل دورهم تحكيميا بين الطرفين. وكان الصراع مع بني عبد الواد عائليا وحدوديا وسياسيا وبدأ منذ حربهما مع الموحدين. وبعد دخول مراكش حاصر يعقوب المنصور تلمسان، لكنه اضطر إلى فك حصاره بعد تحالفها مع تونس ولجوء الطرفين إلى إيواء الثوار ضد المرينيين. وقد تكرر الحصار ودام مرة ثماني سنوات (698-706هـ) وانتهى باغتيال أبي يعقوب بمدينة المنصورة التي أقامها على أبواب تلمسان وفك أبو ثابت الحصار بعد ذلك. وفي

عهد أبي سعيد عقد الصلح مع تلمسان وحصل تحالف ومصاهرة مع تونس. ولما تولى أبو الحسن نشط مغاربيا وضم تلمسان عام 747هـ وتونس عام 748هـ، لكنه سرعان ما فقدهما مع عرشه، وعاد أبو عنان وضم العاصمتين لوقت قصير.

على الجبهة الداخلية، عانى بنو مرين من اضطرابات داخلية دائمة. ففي الجنوب كان لسكساوة وحلفائها من المصامدة وقبائل المعقل نشاط مستمر تطلب حركات متكررة للسلاطين. وكان الأمراء المرينيون مصدر قلق حيث حصلوا على المدن والأقاليم على شكل إقطاعات وتصرفوا فيها بحرية وأياد مطلقة. وكان الريف ملجأ للثوار لقربه من غرناطة وقشتالة وأراغون التي تقدم الدعم لكل ثائر. وثار بعض الأبناء على آبائهم كما فعل أبو على مع أبيه أبي سعيد عثمان في سجلماسة وتوات بدعم أراغوني (المرتزقة في فاس) ونفس الشيء قام به أبو عنان ضد أبيه أبي الحسن عام 748هـ. وكانت هذه المشاكل تكبل أيدي السلاطين وتؤثر على سياساتهم.

تدهور وضعف المرينيين

بعد وفاة أبي عنان أو اغتياله تدهورت الأوضاع بسرعة كبيرة في المغرب، واتخذت الأزمة مظاهر عديدة أهمها:

هيمنة الوزراء على الحكم: تولية وعزل السلاطين باستمرار، فقد حكم بعد أبي عنان سبعة عشر سلطانا اغتيل منهم سبعة وعزل خمسة. وكان أولهم السعيد (1358-1374م) الذي أغرق في صهريج.

فرض غرناطة وصايتها على الدولة وتدخلها في شؤونها خاصة في عهد محمد الخامس (1374-1393م)، وقد أخذ جبل طارق ووضع حامية له في سبتة، كما فرض توجيهاته على الوزراء الذين نفذوها ودعم الثوار متظاهرا بلعب دور الحكم.

تدخل إيبيري في البلاد: في 1399م دخل هنري الثالث الإسباني تطوان ونهبها وباع سكانها في سوق النخاسين بمبرر طرد القراصنة. واحتل البرتغال سبتة عام 1415م وفشلت جهود أبي سعيد الثالث (1398-1420م) في استعادتها بعد أن تكبد هزيمتين آخرهما عام 1419م.

انقسام البلاد إلى عدة مناطق مستقلة في الريف وسوس وتافلالت، وزاد استقلال القبائل ونفوذها (تافلالت ودرعة والأطلس الكبير)، كما ظهرت أسر حاكمة مستقلة في الجنوب (هنتاتة في مراكش)

ثورة فاس عام 1420م التي قضت على أبي سعيد الثالث وكل أسرته عدا طفل صغير هو عبد الحق (1420-1465م) الذي صار آخر الحكام المرينيين تحت وصاية أبي زكرياء يحي الوطاسي وأثنان من أفراد أسرته.

ثورة شعبية في فاس ضد إصلاحات عبد الحق المالية وإشراكه اليهود في إدارته سنة 1465م، وقد تسببت في قتل عبد الحق وتعيين الجوطي الإدريسي خليفة، لكنه كان ضعيفا واقتصر نفوذه على فاس مما سهل القضاء عليه من قبل محمد الشيخ الوطاسي عام 1472م ليؤسس الأسرة الوطاسية خليفة المرينيين.

وتعود أسباب ضعف المرينيين إلى:

ضعف القاعدة الإثنية (قبيل بني مرين)

انعدام مذهب ديني على غرار ما هو معروف عند المرابطين والموحدين

الاضطرابات التي خلقها بدو العرب مما اضطر الدولة إلى ترضيتهم (المصاهرة – الاقطاعات – التحالفات السياسية)

جيش ضعيف وقليل الولاء.

خاتمة

تولى المرينيون السلطة في ظروف مضطربة ودون استعداد خاصة على الصعيد الفكري، وقد ظل هذا النقص ملازما لهم طيلة عمر دولتهم وشكل عقدة لهم حاولوا حلها بعدة وسائل دون النجاح في ذلك. وقد كان هذا الغياب للبعد الإيديولوجي أحد أسباب ضعف الدولة وقلة ولاء الرعية مما يمكن أن يفسر كثرة الثورات والاضطرابات.

الحفصيون، الزيانيون والمرينيون

الأندلس و شمال إفريقية بعد سقوط الموحدين في مطلع القرن الرابع عشر للميلاد

حدود الدولة الحفصية الأولى
فرع الحفصيين في تونس
فرع الحفصيين في بجاية

حدود الدولة الزيانية الأولى
الدولة الزيانية
مناطق نفوذ الزيانيين

خطوط تقدم المرينيين
بنو نصر
مناطق نزاع

الدولة المرينية
بنو سليمان حتى 1300 م
إمارة الزاب بعد 1300 م

ملحق: الحكام المرينيون

ملحـق رقم (٧)

جداول بأسماء الخلفاء والسلاطين والحكام الذين عاصروا الدولة المرينية

أ – بنـو مريـن

١ –	أبومحمد عبدالحق بن أبى خالد محيو بن أبى بكر ابن حمامة المرينى .	(٥٩٢ هـ / ١١٩٥م)
٢ –	ابوسعيد عثمان بن عبدالحق (أدرغال)	(٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)
٣ –	محمد (الأول) بن عبدالحق	(٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م)
٤ –	أبو يحيى أبوبكر بن عبدالحق	(٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م)
٥ –	أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق	(٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)
٦ –	أبويعقوب يوسف بن يعقوب ، الناصر لدين الله	(٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)
٧ –	أبوثابت عامر بن أبى عامر	(٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م)
٨ –	أبوالربيع سليمان بن أبى عامر	(٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م)
٩ –	أبوسعيد عثمان (الثانى) بن يعقوب	(٧١٠ هـ / ١٣١٠ م)
١٠ –	أبوالحسن على بن عثمان	(٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
١١ –	أبوعنان فارس المتوكل بن على	(٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)
	أبوزيان محمد بن فارس أبى عنان (ولى ثم عزل فى الحال)	(٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م)
١٢ –	محمد السعيد بن أبى عنان (وعمره خمس سنوات)	(٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م)
١٣ –	أبو سالم إبراهيم بن على	(٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م)
١٤ –	أبوعامر تاشفين بن على	(٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م)
١٥ –	عبدالحليم بن أبى على عمر (انفرد بسجلماسة منذ ربيع الأول سنة ٧٦٣)	(٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م)
١٦ –	أبوزيان محمد (الثانى) المنتصر ابن أبى عبدالرحمن	(٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م)
١٧ –	أبو فارس عبدالعزيز المستنصر بن على	(٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م)
١٨ –	أبو زيان محمد (الثالث) السعيد بن عبدالعزيز	(٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)

١٩ – (أ) أبوالعباس أحمد المستنصر بن إبراهيم ومعه (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)

١٩ – (ب) عبدالرحمن أبويفلوسن (بمراكش) (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)

٢٠ – موسى بن أبى عنان ، المتوكل على الله أبوفارس . (٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م)

٢١ – أبو زيان محمد المنتصر بالله بن أحمد (٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م)

٢٢ – أبو زيان محمد (الرابع) الواثق بالله
ابن أبى الفضل المستنصر ، (للمرة الثانية) (٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م)

٢٣ – أبوفارس بن أحمد (٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م)

٢٤ – عبدالعزيز بن أحمد (٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م)

٢٥ – عبدالله بن أحمد (٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م)

٢٦ – أبوسعيد عثمان (الثانى) بن أحمد (٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م)

٢٧ – أبومحمد عبدالحق بن أبى سعيد (٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م)
(الثانى)